بـعد عشـرة أعـوام

أقصوصة مصرية

كان الزمان مساء الخميس من شهر مارس سنة 1925. وموجة الدفء تسري في هيكل الشتاء المتجمد سريان رنوة الحنان في عين الحسناء المتكبرة، وكان مسرح حديقـة الأزبكية مكتظا ببعض طلاب مدرسة الخديوية، اختارت المدرسة لمشاهدة تمثيـل روايـة كليوباترة، وكان جابر رشدي يرى المسرح لأول مرة في حياته، وكان مقعده الرابع مـن الصف الثالث من الصفوف الأمامية، فجلس مسرورا وفخورا – لا لحسن موقع مقعـده فحسب – ولكن لأنه صادف أن لبس البنطلون الطويل لأول مرة كذلك في ذاك المساء، وكان يقول لمن حوله بثقة: انه من غرائب المصادفات حقا أن يجلس في نفس الصف الذي يجلس فيه عادة كلما ذهب إلى مسرح الحديقة مع والده !... ولبـث المكـان يـضج بالصراخ والتنادي والضحك والنكات الهامسة يقذف با المدرسون، ولكن ما كاد الجرس يرن والمكان يظلم حتى سكتت الأصوات واشرأبت الأعناق، ثم رفع الستار وبدأ التمثيـل بين الاهتمام والشغف إلى أن انتهى الفصل الأول وهبط الستار، فضج المكان بالتـصفيق، صفقت الأيدي الصغيرة حتى أعياها التصفيق، ثم عاود أصحابا أحاديثهم وعبثهم. وكان يجلس إلى يسار جابر رشدي فتى يدعى الحديدي، له تجارب في اللهو والغزل على حداثة سنه، ومعدود من رواد دور التمثيل، وقد قرأ في وجوه من حوله آي الإعجاب والانبساط فأكرم نفسه عن مشاركة السذج والأغرار عواطفهم، وقال بلهجة الناقد: " لا تعجـبني هذه الرواية، والحق أن أجمل ما فيها هي كليوباترة نفسها أعنى سوسن جـوهر " فـلاح الرضا في وجه جابر وقال بإعجاب: " سوسن جوهر، ما أجملها. ما افتنها !" فنظر إليـه الحديدي نظر الخبير إلى الغشيم وقال: " ليست كما تتصور يا هذا، ولكنها على كل حال جديرة بالإعجاب، لأنا تبدو كاليافعة وهى في الحقيقة في نهاية الحلقة الرابعة " فلاذ جابر بالصمت دهشة، وكبر عليه الأمر، وكان في حال يرثى لها، لان كليوباترة حين أبـدت محاسن وجهها ومفاتن جسمها ورنت بعينها وتثنت بعطفها ونفثت سحر الحديث وحلو الكلام قنصت إمبراطور الرومان على المسرح وسحرت المسكين جابر رشدي في الـصف الثالث، لبث طوال مدة التمثيل يصعد إليها بصره في ذهول ابن أربعة عشر، يتجلـى لـه

حسن باهر لأول مرة. وكانت سوسن جوهر تبدو في اللباس الملكي آية في الحسن المنغمر بنور المسرح البهيج، نقية اللون والثغر، ضامرة البطن، رشيقة القوام، مرتوية الساقين قاتلة الرنوات، سوداء الشعر، عذبة الصوت، حلوة النبرات، لم يسمع كصوتا ولا في سـجع الأغاني، فتسائل حيران مغرما: " أإنسان هذه المخلوقة البديعة أم ملاك كريم ؟ ... هـل يمكن أن يخفق قلبها بالحب ؟ وان تيم بإنسان كما يهيم الناس با ؟" ورغب أن يعطـف سؤاله إلى الحديدي، ولكنه أشفق من تكمه، وتعوذ بحمى الصمت حتى فـارق المـسرح سليب اللب، فقيد القلب، مشرد الخيال، ثائر النفس، مصدع الصدر، يعالج أنفاس الحب الأولي. وثقلت عليه الحياة خارج المسرح حيث لا سوسن ولا كليوباترة، فبدا البيت بارداً والمدرسة سمجة، وكبر عليه أن ينظر إلى وجه هذا أو ذاك من البشر بعد أن قبست عينـاه نورا من جبين سوسن المشرق، فأحس تمردا وثوره، ونازعة قلبه إلى النسيم العبق والستائر المخملة الحمراء والنور البهيج، وجعل يتنهد قائلا: متى يأتي يوم الخميس ؟.. ولم يكن في وسعه أن يذهب إلى المسرح أكثر من مرة في الشهر، ولكن صورتا لم تفارقه قط، كانت تثوي في قلبه ووجدانه، وتلوح في خياله أبى مما تطمع فيه أية حسناء، وتابع ما يكتـب عنها في الـلات، واقتطع الصور التي تنشر لها، جاعلا منها نماذج لقلمه المفتون، وعاش في دنيا خيال وفتنه وإبداع دعائمها خفقة القلب الأولى ونشوة اليفاعة ويقظة الخيال وتوثب العاطفة وطهارة القلب، فراح ضحيتها جميعا واعتله المرض الذي لا شفاء منـه، وكـان يسائل نفسه محزونا مكتئبا: ما معنى هذا الحب الذي اغرق فيه ؟.. ما جدواه ؟... ومـا عسى أن تكون غايته ؟...وما من أمل أعلل به نفسي، وما من سبيل إلى أن تعلـم أن في صدري قلبا لها يأتكل ويحترق ؟... أما لعذابي هذا من ختام ؟... وأما لدمعي من كفاف ؟".

وبلغ به اليأس أن جعل يفكر في الانتحار، ولكنه لم يبتل بمداومة التفكير فيه، اذ خطر له خاطر سعيد هبط على قلبه كالوحي، فأشرق الأمل بعد مغيب. قال لنفـسه: إني لم أجاوز الرابعة عشرة، وسوسن تعتلى قمة الأربعين، وكلما تصبرت عاما أوغلت قدمي في بساتين الصبا وهبطت هي درجات نحو وادي الشيخوخة، وسأناهز العـشرين حـين تنتصف با الحلقة الخامسة، ولن أرضى باليأس في ذاك العهد القادم، ولا بأس أن أمد حبل

انتظاري لعلى أجد في الخامسة والعشرين أو ما بعد ذلك متنفساً لصدري وبرءاً لسقامي، وهل تزهد امرأة في الخمسين في شاب ابن خمس وعشرين يتوسل إليها لشدة حبه وشبابه وعذاب الاعدام ؟! واطمأن إلى منطقه وحببه إليه الأمل فداخلته رقة ولذة وطابـت لـه الحياة.

وتوالت السنون فحصل على البكالوريا والتحق بالزراعة العليا، ولبث قانعا من لذة الدنيا بمشاهدتا بضع ساعات كل شهر، حتى كانت سنة 1929 فأعلنت الـلات المسرحية أن فرقة سوسن جوهر ستقوم برحلة فنية في البلاد الشقيقة، فجزع جابر جزعا شديدا، وأيقن أنه سيحرم لذته الوحيدة اشهرا طوالاً، ولكن بعد انقضاء زمـن الرحلـة نشرت اللات خبرا مؤداه أن سوسن جوهر تعتزل التمثيل إلى حين للعمل في الـسينما، فكانت القارعة، وبلغ منه الحزن مبلغا جنونيا أضناه وعناه وكربه، ولكنـه لم يستـسلم لليأس، وبات على أمل إن يراها يوما في السينما أو أن ينازعها الشوق إلى المسرح فتعـود إليه، نعم ما دامت تعمر الدنيا بحسنها فما ينبغي له أن يقنط، ولكنه لم يستطع أن يقـاوم وحشة مخيفة تجثم على صدره، فكأنه كان يعيش في قبر مهجور.

وجاءت سنة 1932 فحصل على دبلوم الزراعة وعمل مهندسا زراعيا في أدفينا ... وحمل معه إلى مقر عمله ما سماه " متحف سوسن ". وهو صوان صغير أنيق يحتوى مجموعة صورها المختارة من الصحف والمقالات، والنبذات التي نشرت عنها في المناسبات المختلفة، وكراسة ضخمة أرخت حبه يوما بعد يوم، وسطرت تاريخ هواه وآلام قلبه، غير مبقية على زفرة أو أنة حتى الدموع استقرت في أماكنها بين الأسطر وعلـى الكلمـات، واحتفظ كذلك فيه بالبذلة التي كان يرتديها يوم رآها لأول مرة في مسرح الأزبكيـة، لم يهملها لتقادمها، وقد لفت جسمه مساء نفذ إلى صدره أول شعاع للحب، وكان يثوب إلى هذا المتحف كلما نازعته إليها نفسه أو لج به الشوق، فلم يفارق جوها ودنياها، ولبث خياله غارقا في أحلامها وأوهامها. ومضت الأيام يحتث بعضها الـبعض وهـو يتـصبر ويتجلد، ويتملص من مخالب اليأس، حتى كان عام 1935، وشاء الله أن يكافئ ذلـك الأمل اللحوح، فظهر إعلان في اللات يبشر بعودة سوسن جوهر إلى عالم الفن وافتتاحها صالة للرقص والغناء، فلم تتز نفس في مصر كما اهتزت نفس مهندس أدفينا الزراعـي،

ولقد ثبتت عيناه على الإعلان في ذهول ثم في إشراق وفرح، ثم في اضطراب وجنـون، ثم تنهد من اعماق صدره وقال وعيناه تغرورقان: " جاء يومي بعد تصبر عـشرة أعـوام " وحشا حافظته بالنقود التي أعدها لذاك اليوم السعيد، وسافر إلى القاهرة يود لـو ينـدفع القطار بقوة فرحة ...

واستقبل المساء على تمام الأهبة، حليق الذقن، أنيق الملبس، عامر الجيب، ومضى إلى الصالة كالحالم، ووجد الجمهور يدخلها زرافات ضاحكة عابثة، فدخل مع الداخلين، ولكن كان وجلا متهيبا حائرا متسائلا: ترى ماذا هو فاعل ؟ وعلـى اى وجـه تنتـهي مخاطرته ؟ ورأى مائدة خالية قريباً من المقصف فقصد إليها وجلس ، وألقى على المكـان نظرة شاملة . كانت تمثل رواية هزلية من فصل واحد فلم يلق إليها بالا، وكانت جماعـة من الراقصات يجالسن بعض الشبان ويشاربنهم، فلم تعجبـه مداعبتـهن ولا تـوددهن، وتساءل متأففا: هل يدعو سوسن كما يدعو الشبان الراقصات ؟... ولكنه لا يريد ثمنـا لشراب يقدمه، ولكن ثمن الحب الأمين والصبر الجميل . انه ما اعد العدة في أحلامه للقاء يتم في صالة. وانقبض صدره وأحس وحشة وكآبة، وأيقظه من غيبوبته صـوت ينـادى النادل وراءه مباشرة، فأوشك أن يلتفت إليه، ولكنه جمد وخفق قلبه خفقة عنيفة كاد لها يتصدع، انه الصوت الرخيم العذب، الذي لبث يتجاوب فدى قرارة نفسه عشرة أعوام، صوت كليوباترة جاءت من حيث لم يتوقع.. وحنت حواسه وجوارحه جميعا إلى الوراء، ولكنه لم يبد حراكا من فعل المباغتة والصوت، وثورة الوجدان، وكان يجلس أمامه حول مائدة عامرة بالكؤوس المترعة جماعة من أعيان الريف كما يدل مظهرهم، فاتجـه واحـد منهم إلى التي وقفت وراءه، وأحنى رأسه ثم دعاها إلى الجلوس ... فاشتد وجيـب قلبـه وهو يوشك أن يراها بعد صبر عشرة أعوام وآلام مائة وعشرين شهرا. وصوب نحوهـا ناظريه في تيب وهيام. رأى القادمة تسير في تبختر الأوزة، عبلة القوام، لفاء الساقين، رابية الكفل، ذهبية الشعر، ذهبية الأسنان، فاضحة التبرج، تتردد في عينيها نظرة إغراء وخبث، فالتفت إلى الوراء سريعا فلم ير سوى بعض العمال، فعاد إلى المرأة، وقد تبدل من هيامـه حيرة وانزعاجا وذعرا. أين كليوباترة ؟ أين الملاحة والرشاقة والفتنة ؟ من هـذه المـرأة الغليظة الفاجرة ؟ رباه !.. هذا الصوت لا يخطىء، وهو الذي حافظ على بائـه القـديم

دون ما عداه !... وهذه الملامح ملامح سوسن على تغيرها وبشاعتها، فكيف حدث كل هذا ؟ وكيف لم يشعر به قلبه الرهف المغرم ؟ رباه !... إنا تجاري الراقصات في تبذلهن وفى ايما آتين الوقحة، وفى مداعباتن المكشوفة ! أين هذا من حوار كليوبـاترة الفـاتن وهواها الخالد، وسحرها الذي لا يقاوم ؟.. لقد انار كل شيء كأنما دكته قنبلة عاتيـة وتركت في أثره خرائب لها في صدره صدى وحشة وفى قلبه حسرة ولوعة ! ودنا النادل منه فأومأ إليه وأشار إلى المرأة وسأله بصوت خافت: " من هذه ؟" فقال الرجل منكرا: " كيف لا تعرفها ؟ هي سوسن جوهر " فغض طرفه وأحس رغبـة في البكـاء ، بـل إلى الصراخ والعويل، ولكن ماذا يجديه هذا ؟... لقد انتهى كل شيء..!

ومضى الليل مع هذا في الصالة غائبا عما حوله، يرمـق سوسـن – سـواء في مجلسها أو على خشبة المسرح – بنظرات حائرة يائسة، وكان يحاول – مستعينا بخيالـه وأمله ورغبته – أن يجد فيها حبيبته فلم يفلح. وعند منتصف الليل رآها تغادر الصالة من الباب الخلفي متأبطة ذراع رجل طويل القامة مفتول الشارب، يرتدى معطفـا وجلبابـا وطربوشا طويلاً، لدرجة تلفت النظر كأنه من رجال البوليس السري، وكان على مقربـة منه بائع فستق جوال، فأومأ إلى رفيق الراقصة وسأله بسذاجة: " من الرجل ؟..." فنظـر إليه البائع بغرابة وإنكار ، ثم أحنى رأسه حتى تقوس قفاه وصفع نفسه ثلاثـا وضـحك ضحكة بشعة . واتجه بصر الشاب نحو المرأة، وتنهد قائلا من قلب مكلوم:" الـوداع يـا سوسن ... الوداع إلى الأبد !."

* * *

وعاد إلى أدفينا متصدع الرأس محطم القلب، وثبت في نيته أن يحـرق متحـف الحب على اثر وصوله، ولكنه ما كاد يرى الصور التي طالما ألهمت قلبه الحب والعطـف والحنين، والكراسة التي اشتملت على ذكريات عشر سنين من الهيام واثر الـدموع بـين الأسطر، حتى عدل عن عزمه وقال لنفسه متأثرا: " كلا لن يزول هذا الأثـر، فإحراقـه إحراق لأجمل عهد يضوع منه مسك الشباب ... فليبق متحف الحب وليكن حبا بغـير حبيبة ...

ثم بسط كراسة الذكريات بين يديه وأضاف إليها بضعة اسطر، كانـت ختـام تاريخ الحب والوهم..